الآداب
المجلد: 23، العـدد: 01، ديسمبر 2023
الصفحات: 26 – 44
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

البعد الاستكشافي الاستطلاعي في النصّ الرحلي الجزائري
–دراسة وصفية للرحلة الأغواطية–

The Exploratory and Expeditionary Dimension in the Algerian Nomadic Text
A Descriptive Study of the Laghouat's Trip

د.زليخة ياحي [1]

د. فاطمة الزهراء شول [2]

[1] جامعة الجزائر 02 – الجزائر، Zoulikha.yahi@univ-alger2.dz

[2] المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط – الجزائر، fatimazouhra@ens-lagh.dz

تاريخ الإرسال: 2022/06/10 تاريخ القبول: 2022/12/04 تاريخ النشر: 2023/12/15

ملخص:

تعتبر الرّحلة وسيلة من وسائل التّعرّف على العالم، وشاهدا من شواهد الحضارات السّابقة، ووثيقة تؤرّخ للأقوام والشّعوب والإنسان فضلا عن المتعة الفكريّة والأدبيّة الّتي تحتويها؛ ممّا يهمّ المؤرّخ والجغرافي، وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرّخي الآداب والأديان، والأساطير فالرّحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور، وهذا الّذي تعكسه الرّحلة الأغواطيّة لابن الدّين الأغواطي الّتي رغم قصرها حفلت بالكثير من المعلومات، والّتي كما قال أبو القاسم سعد الله أنّها جاءت بطلب من القنصل الأمريكي ويليام هودسون، فقد أظهرت جماليّة عكست روح الرّحالة المحبّة للاستكشاف والاستطلاع.

كلمات مفتاحية: أدب الرّحلة؛ الاستطلاع؛ الاستكشاف؛ جمالية؛ ابن الدّين الأغواطي.

Abstract:

The journey is a way of getting to know the world, a witness to previous civilisations, and a document that chronicles the nations, people, and human beings as well as the intellectual and literary pleasure they contain. It is an area of interest for historians, geographers, sociologists, economists, literary and religious historians, and mythologists. Travels are a rich source for different sciences, and they are an actual record of the multiple life manifestations and the concepts of its people over the ages. This is reflected in Ibn Al-Din Al-Aghouati Aghout's trip, which, despite its shortness, was informative and, according to Abu Al-Qasim Saad

المؤلف المراسل: زليخة ياحي

Allah, came at the request of the American Consul William Hudson. It showed an aesthetic that reflected the spirit of the traveler-loving exploration.
Keywords: *Travel literature; expedition; exploration; aesthetics; Ibn al-Din al-Aghouti.*

مقدمة:

أخذت الرّحلة الأدبيّة حيّزا معتبرا في التّراث العربي والغربي على حدّ سواء، بالنّظر إلى النّشاطات الأدبيّة الأخرى، وهذا نظرا لما تزخر به من معلومات ومعطيات أضفت مسحة خاصّة على التّراث العربي والغربي، وأكسبته رصيدا ثريّا؛ بسب ما تتمتّع به كتابات الرّحالة من خصائص امتزج فيها الواقع بالخيال في تناغم فريد من نوعه جعلها تصطبغ بصبغة مميّزة، جذبت من خلالها أقلام الباحثين والمهتمّين للغوص في ثناياها، وبهذا نالت الرّحلات حظوة ومكانة نبعت من أهميّتها في مختلف مناحي الحياة السّياسيّة، والاقتصاديّة والثّقافية كذلك.

ويعدّ أدب الرّحلة معينا ثريًّا بمعلومات عن الشّعوب والبلدان الّتي زارها الرّحالة، بل ومخزونا زاخرا بالصّورة حول عاداتها وتقاليدها، والأفكار السّائدة عند أهلها، كما أنّه لون أدبيّ ذو طابع قصصي ومعروف أنّ النّاس كانوا ولا يزالون في البلدان والأزمان المختلفة شغوفين بحب السّفر وبمعرفة العالم المحيط بهم على الرّغم من اعتقاد البعض أنّ ذلك بمثابة السّعي وراء غايات بعينها؛ لأنّهم في الحقيقة كانوا مدفوعين برغبة قويّة لفهم الآخر الغريب، المختلف واستيعابه، وإقحام الذّات فيما هو أبعد من الآفاق المعروفة، والولوج بها إلى فضاءات مجهولة وخرافية.

ويظلّ الإنسان بطبعه متعطّشا لمعرفة ورؤية العالم من منافذ أخرى، ولكنّه كلّما زادت معرفته اكتشف أنّ العالم الّذي يعيش فيه أوسع ممّا يعتقد، وبهذا تعتبر الرّحلة بالنّسبة له وسيلة من وسائل التّعرّف على هذا العالم، وشاهدا من شواهد الحضارات السّابقة، ووثيقة تؤرّخ للأقوام والشّعوب والإنسان فضلا عن المتعة الفكريّة والأدبيّة الّتي تحتويها، وما دامت تحظى الرّحلة بكلّ هذا الاهتمام فالظّاهر أنّ الدّراسات الاستشراقيّة الغربيّة اهتمّت بالصّحراء وجغرافيّتها، ومختلف الجوانب الأخرى وهذا الّذي تجلّى في الرّحلة الأغواطيّة الّتي كتبها ابن الدّين الأغواطي بطلب من القنصل الأمريكي والّتي اعتبرت من الكشوفات الجغرافيّة الرّائدة الّتي حازت اهتمام الفرنسيّين والأمريكيين، وللوقوف على جماليّة هذا النّص الرّحلي تمّ طرح الإشكاليّة الآتيّة: ما هي الجوانب الجماليّة في الرّحلة الأغواطيّة؟ وكيف لاقت حظوة عند القنصل الأمريكي؟ وما هي الجوانب

الّتي ركّز عليها الرّحالة في كتابته؟ بالإضافة إلى طرح تساؤلات تدور في فلك التّعريف بالرّحلة، ودوافعها وأنواعها، وأهميّتها وغيرها من الأسئلة.

وللإجابة عن هذه التّساؤلات نعتمد آليّات منهجيّة تساعدنا على الوقوف على جمالية مدينة الجزائر في هذا الكتاب على غرار المنهج الوصفي التّحليلي، الّذي سنستعين به من خلال استقراء محتوى الكتاب ووصف اللّوحات الّتي يحويها، بالإضافة إلى المنهج التّاريخي الّذي يرصد تاريخ الجزائر، وامتداد الرّحلات وتنوّعها، وغيرها من الآليّات الإجرائيّة الأخرى.

1. تعريف الرّحلة:

1.1 لغة:

تذكر معظم معاجم اللّغة أنّ الرّحلة تعني: انتقال الشّخص من مكان إلى مكان، ففي معجم لسان العرب لابن منظور "رحل الرّجل؛ إذا سار، ورحُل رحُول وقوم رحّل؛ أي ارتحلوا كثيرا، ورجل رحّال: عالم بذلك ومجيد له، والتّرحّل والتّرحال: الانتقال، والرّحلة اسم للارتحال، وقال بعضهم: الرّحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضّم: الوجه الّذي تأخذ فيه وتريده"[1].

أمّا في المعجم الوسيط: "رحل عن المكان: سار ومضى، والمصدر رحل، وترحال ورحلة والرّحال (بضمّ الرّاء وفتح الحاء) لا يستقرّون في مكان، والرّحالة الكثير الرّحلة، والرّحلة: كتاب يصف فيه الرّحالة ما رأى"[2]، فمن خلال هذه الدّلالة اللّغويّة نلاحظ أنّ الرّحلة هي انتقال من مكان إلى آخر.

2.1 اصطلاحا:

الرّحلة هي كتابة يحكي فيها الرّحالة أحداث سفره، وما شاهده وعايشه؛ بحيث يمزج ذلك بانطباعاته الذّاتية حول المكان الّذي ارتحل إليه، فهي مصطلح أدبي وجغرافي يقصد به ذلك المنتوج الفنّي الّذي يروم التّنظير لأدبيّات السّفر والمسير، وهو ذلك الخطاب الّذي يتبع نشاط الرّحالة، وهو يجوب البلاد إمّا حجّا أو اعتمارا، أو نزهة واستطلاعا، أو طلبا للمعارف والعلوم أو تجارة، وهذا الّذي يطلق عليه أدب الرّحلة؛ الّذي يعتبر من الآداب القديمة عند العرب.

وتعتبر الرّحلة فنّا من الفنون النّثرية الّتي تتعلّق بحياة الافراد والأمم الّتي زارها الرّحالة؛ حيث تتناول مختلف نواحي حياتهم ومعيشتهم بأسلوب أدبي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة، ولا بدّ لكلّ رحلة مكتوبة

من سفر حقيقي وفعلي، ولا يمكن تصوّر كتابة رحليّة دون رحلة، إلاّ في الرّحلة الخيالية كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد، والتّوهم للحارث المحاسبي.

ويعرّف معجم المصطلحات الأدبيّة أدب الرّحلة بأنّه: "مجموعة الآثار الأدبيّة الّتي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرّض فيها لوصف ما رآه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطّبيعيّة الّتي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته، أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد، ويعتبر مصدرا هامّا للدّراسات المقارنة، كما أنّ علماء الأدب المقارن اعتبروه قسما من أقسام هذا الأدب"[3] لما يتيحه لهم من مادة غزيرة تساعدهم على البحث والتّقصي عن صور الشّعوب وحياتهم عبر امتداد الأزمنة والحقب التّاريخيّة.

وكذلك المعجم الأدبي الّذي يسهب في هذا السّياق فيقول: "نزلت الرّحلة في الأدب العربي الحديث منزلة رفيعة، وأصبحت فنّا من الفنون الشّائعة في معظم بلدان العالم يقتضي التّأليف فيها ثقافة واسعة، ودقّة في الملاحظة والتقاط الملامح المعبّرة، ومشاركة في عدد كبير من المعارف، إنّ الإثارة في الرّحلة متأتّية من الوصف الطّريف للواقع والسّرد الفنّي للمغامرة، ونابعة أيضا من أنواع الشّخصيّات الّتي توردها"[4]، وهنا تظهر براعة الكاتب وما يمتلكه من مواهب تساعده على نقل مشاهداته وتوثيقها طيلة مدّة رحلته.

ومن خلال ما سبق يمكن القول إنّ أدب الرّحلة عبارة عن خطاب ينشئه الرّحالة، ويحكي فيه أحداث سفر عاشها، واصفا الأماكن الّتي زارها والأشخاص الّذين لقيهم، وما جرى بينهم على أنّ الغاية العظمى الّتي يرومها أدب الرّحلة هي إمتاع القارئ وإفادته، بالإضافة إلى توثيق كلّ المعلومات المتعلقة بالبلد الّذي حطّ رحاله فيه، وعادات وتقاليد أهله، ونمط حياتهم وتفكيرهم كما فعل ابن بطوطة على سبيل المثال لا الحصر.

2. دوافع وبواعث الرّحلة:

يعتبر حبّ المغامرة واكتشاف المجهول، بل وتحقيق غايات ماديّة من أبرز الدّوافع الّتي تجعل الإنسان يخوض غمار الرّحلة والسّفر، ويشدّ الهمّة للانتقال من مكان إلى آخر، بل وحتّى معرفة الآخر واكتشاف خبايا العالم من أبرز الدّوافع كذلك؛ لأنّها "تدعو بكلّ إلحاح للحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر بمعنى أنّ من شأن دوافع معيّنة أن تدعو الإنسان: الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحّة لكي يخترق حاجز المسافة، ولكي يتحمّل مشاقّ السّفر، ومتاعب الاغتراب، وصولا إلى غاية مباشرة أو تحقيق لهدف معيّن"[5]،

فالرّحلة والانتقال غريزة فطريّة في البشر تدفعهم إلى مغادرة المكان المحدود لاكتشاف خبايا العالم اللاّمتناهية، والممتدّة على مدّ البصر.

ويبدو أنّ دوافع الرّحلات وبواعثها تختلف من رحّالة إلى آخر وفقا لحاجاته والظّرف الّذي مرّ به أو عايشه؛ حيث نجد في كلّ كتب الرّحلات "هذه العبارة: لا أعرف ماذا حدث، وكيف حدث، ولكنّي قرّرت أن أتوكّل على الله حتّى النّهاية"[6]، وهذا الإصرار في حدّ ذاته يجعل الرّحالة يعقد العزم لمواصلة رحلته، واكتشاف خبايا وأسرار العالم؛ "والّذي يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف.. يريد أن يفهم، يريد أن يرى الجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه، من أجل الحياة والتّقدّم"[7]، ولعلّ الشّغف بالرّحلة وحبّ الاستطلاع هو ما يدفع بالإنسان إلى الارتحال وسبر أغوار المجهول والغامض.

وفي هذا السّياق يقول المثل الإغريقي: "إنّ الحجر المتحرّك لا ينبت عليه العشب؛ أي عشب الصّداقة والمحبّة والهدوء، ولكن هل من الضّروري أن ينبت العشب على الحجر، ليس ضروريّا، يكفي أنّ الحجر يتحرّك، ويتنقّل ويذهب هنا وهناك، ولكنّه يمضي ويسجّل في أعماقه هذه الفوراق العريضة العميقة بين شعب وشعب، أو بين تجارب شعب وتجارب شعب آخر"[8]، بفضل تحرّكه وانتقاله ولو بقي حبيس وطنه ومدينته لما تمكّن من تدوين هذه الفروقات، ورصد هذه التّجارب.

والمؤكّد أنّ دوافع الرّحلة وبواعثها تختلف وتتنوّع؛ "فالطّبيعي جدّا أن يسافر الإنسان، أن يرحل، أن يذهب بعيدا عن بيته ووطنه ليرى ويعرف، إنّه حبّ المعرفة، إنّها المغامرة، إنّه الّذي يتحدّانا ونتحدّاه، إنّها متعة المعرفة والخوف منها معا، ولذلك فالرّحلة هي مزيج من الرّغبة والرّهبة من الشّجاعة والخوف، ولكن الإنسان يفضّل دائما أن يعرف المجهول مهما كان الثّمن، وكثيرا ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا، وماتوا وهم يعرفون أكثر، ولا بدّ أنّ تعاستهم الوحيدة هي أنّ الموت حرمهم من أن يقولوا ما الّذي رأوه"[9]، ولو عاشوا لأخبرونا بأسرار وعجائب لا حدّ لها.

ورغم كلّ المشاقّ والصّعوبات الّتي تعرّضوا لها لكن " كلّ هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدّثون عن عذابهم بلذّة، ولو خيّرناهم أثناء رحلاتهم الطّويلة أن يعودوا لرفضوا، فهم يريدون أن يستمرّوا، أن يمضوا حتّى نهاية الحياة"[10]، في سبيل تحقيق مآربهم وإشباع نهمهم في السّفر.

ومثال ذلك رحلة (كون تيكي) للرّحالة النّرويجي تور هايردال، الّتي يقول فيها: "كان ذلك يوم 17 مايو إنّه عيد الاستقلال، ونحن في عرض المحيط، لا أعرف كيف حدث ما حدث، كيف وجدت نفسي في

المحيط على زورق خشبي معي ببغاء وخمسة من البحارة، ولما سألت واحدا منهم قائلا: كيف حدث ما حدث؟ كان ردّه: لا أعرف إنّها فكرتك المجنونة، ولكنّها رائعة"[11]، إنّه الباعث الأكبر وهو المغامرة وحبّ الاكتشاف، بل وقد يقترن الأمر بدوافع أخرى.

ومهما كانت الأسباب والدّوافع إلاّ أنّ "الغرض من السّفر هو أن يخفّف الإنسان من عذابه، أن يلقي بهمومه على الشّواطئ الجديدة، ويرميها على الوجوه الجديدة"[12]، ويمكن فيما يلي أن نرصد جملة البواعث الدّافعة إلى الرّحلة.

- **دوافع ذاتيّة**: تعتبر الدّوافع الذّاتية من أبرز العوامل الّتي تجعل الرّحالة يقصد بلادا أخرى ربّما بحثا عن الطّعام أو الملبس أو المشرب، وربّما لظروف أخرى كظروف قاهرة مرّ بها أو ظلم تعرّض له على غرار ما حدث لأهل الأندلس؛ حيث ألمت بهم "ظروف قاسية أجبرتهم على مغادرة موطنهم ومرتع صباهم مكرهين، وهم يحملون وطنهم في قلوبهم أينما حلّوا"[13]، وكذلك الحروب والفتن وما يصادفه الإنسان من مثبّطات تجعله يفكّر في الرّحلة والسّفر بعيدا.
- **دوافع دينيّة**: تمثّلت هذه الدّوافع في الرّغبة الجامحة إلى زيارة البقاع المقدّسة، فهناك الكثير من الرّحالة الّذين شدّوا الرّحال إلى مكّة المكرّمة والمدينة رغبة في الاعتمار وأداء فريضة الحج، وكان هذا دافعا لتحريك أقلامهم لوصف وسرد ما سمعوه وشاهدوه في رحلاتهم على نحو ما فعل ابن بطوطة؛ حيث يقول: "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثّاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله عليه أفضل الصّلاة والسّلام"[14]، فالكثير -كما سبق الذّكر- ارتحلوا وسافروا بسبب تعلّقهم بالأماكن المقدّسة ورغبتهم في زيارتها ودافعهم إلى ذلك الشّوق والحنين لأداء العمرة أو الحج، وبذلك كانت الفرصة مواتية لتدوين وتوثيق رحلاتهم.
- **دوافع تعليميّة**: إنّ طلب العلم والتّعليم غاية يروم تحقيقها كلّ من تعلّقت قلوبهم بالمعرفة، بغرض "الاستزادة من العلم من منطقة أخرى ذاع صيت أبنائها في مجالات العلوم كالفقه والطّب والهندسة والعمارة، وغيرها وتذكر كتب الحديث والسّير أنّ من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار، ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به، أو لمجرّد التّحقّق من كلمة فيه"[15] وأبرز رحّالة في العصر الحديث رفاعة رافع الطّهطاوي.

- **دوافع استكشافيّة**: لعلّ حب التّنزّه والتّجوال من الدّوافع البارزة الّتي تجعل الإنسان يشقّ دربه منتقلا من فضاء إلى فضاء، أو مدينة إلى مدينة، ويظلّ هاجس سبر أغوار المجهول والغامض، واكتشاف الأمصار والأقطار من البواعث الرّئيسة في أدب الرّحلة.
- **دوافع سياسيّة**: تتعلّق هذه البواعث بالرّسل الّذين يتمّ إرسالهم في وفود رسميّة إلى بلدان أخرى؛ بحيث يبعث بهم الحكّام والسّلاطين لغايات معيّنة بين البلدين، كعقد اتّفاقيّات أو مناقشة قضايا سياسيّة، فتكون هذه الإرساليّة فرصة سانحة للرّحالة حتّى يجمع معلومات عن البلد الذّي زاره، ويطّلع على أسرار حياته وطريقة عيشه وتفكيره، ومثال ذلك ابن بطوطة الّذي يسرد رحلته الدّينيّة، ويؤكّد بأنّه بعد أن انتهى من مناسك الحج واصل رحلته وقد اختاره سلطان الهند سفيرا له في الصّين نظرا لما عرفه عنه من حبّ للتّجوال والسّفر.

بالإضافة إلى دوافع أخرى على غرار الاقتصاديّة كبحث الإنسان عن عمل، أو "للتّجارة وتبادل السّلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محليّة، أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى، وتندر في بلد المسافر"[16] أو صحيّة من أجل التّداوي، و" للعلاج أو الاستشفاء، أو إراحة النّفس من الكدر كالارتحال إلى المناطق الرّيفيّة ونحوها، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوّث"[17] وغير ذلك من الدّوافع الكثيرة الّتي تجعل الرّحالة يرغب ويخطّط للسّفر، وقد عرف المسلمون بإقبالهم على الرّحلات منذ مجيء الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وتواصل الأمر إلى يومنا، وكذلك الحال مع غيرهم من العجم.

1.2 أنواع الرّحلات:

تبعا لدوافع الرّحلات وبواعثها، والّتي من خلالها أبدع كتّابها وصفا وتسجيلا برزت أنواع كثيرة للرّحلة، فنجد الرّحلات الدّينيّة، وهي التّي يتوجّه فيها صاحبها إلى الفضاءات المقدّسة للاعتمار أو أداء مناسك الحج، وينبثق عنها الرّحلات الزيارية والصّوفية للعبّاد والزّهاد والنّساك، فتكتسي طابعا روحيّا ودينيّا.

كما نجد الرّحلات العلميّة والّتي يكون دافعها الأساس طلب العلم، والاستزادة من مختلف المعارف مثلما كتبه الطهطاوي في رحلته " إلى فرنسا الّتي استغرقت خمس سنوات في كتاب اسمه تخليص الإبريز في تلخيص باريز، وفي الكتاب صفحات مسجوعة على طريقة الكتاب في ذلك العصر"[18]، فهذا الكتاب يعكس نوعا من الرّحلات اهتمّ بالتّعلم وتلقّفها من منابعها الثّرية، كما نجد أيضا الرّحلات التّجاريّة والسّياحيّة والاستكشافيّة، والرّسميّة الّتي ترتبط بالمناسبات، والمواعيد السّياسيّة بين البلدان والدّول.

2.2 أهميّة الرّحلات:

لا يمكن أن ننكر أنّ للرّحلة قيمة علميّة تعليميّة وأهمّية أقصوى نظرا لما تحويه من معارف جمّة في مختلف العلوم والفنون، والميادين؛ ذلك أنّ الإنسان ليس بمقدوره أن يطّلع على كلّ هذا الزّخم المعرفي لولا الرّحالة وما دوّنه من أخبار وما وثّقوه من معلومات؛ لأنّهم جابوا الآفاق البعيدة والأمصار المختلفة، بل واقتحموا المجاهل، وركبوا البحر رغم أهواله.

فالغاية من الرّحلة وإن كانت متعدّدة ولا يمكن حصرها يكفي أن يكون الاكتشاف، ومعرفة بلاد الآخر واحدا من فوائدها، وليست هذه الغاية من أدب الرّحلة، بل من الرّحلة في حدّ ذاتها فمثلا " كثيرون رأوا وعادوا يقولون: إنّ المؤرّخ هيرودوت جاء إلى مصر وعاد ورأى العجائب، وكتب وكان يتغنّى بما رأى في مهرجان الألعاب الأولمبية"[19]، وكذلك الحال مع ابن بطوطة فقد " هاجمه الجنود ومزّقوا مذكّراته كلّها، وعاد ليروي ما حدث له في عشرين عاما من الذّاكرة"[20].

ومن خلال كلّ هذا نتأكّد بأنّ كتب الرّحلات هي " أعماق الآخرين، وأعماقنا نحن أيضا وأعماق هذه الدّنيا، ولذلك كانت أروع الرّحلات هي الّتي نقوم بها في رحلات الآخرين، نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم، نرتمي على أحضانهم ونمشي على الدّنيا معا، وفي ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة، أن نفعل مثلهم ونسافر مثلهم، ونكتب مثلهم"[21]، فمن هنا تتجلّى أهميّة الرّحلات في الحياة، وفي الأدب كذلك.

وفي هذا السّياق يقول الحريري مشجّعا على الارتحال والسّفر:

نقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الّذي يهوى به المطر

فإن رددت فما في الرّد منقصة عليك قد ردّ موسى قبل والخضر.

ومن تجلّيات الأهمّية الّتي تحظى بها الرّحلة أنّها " قد حقّقت الهدف لحساب الإنسان، ونبض الحياة المستمرّ على الأرض، وصحيح أيضا أنّ الإنسان الّذي كرّس اجتهاده لاجتياز الرّحلة لم ولن يفرّط أبدا في جني ثمرات الرّحلة، والانتفاع بها، ولكن الصّحيح بعد كلّ ذلك أنّ الرّحلة رسّخت كلّ العوامل والمفاهيم الّتي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض، بل لقد فجّرت في الإنسان استشعار المصالح المشتركة، الّتي وثّقت عرى هذه الوحدة على الأرض، ومن غير الرّحلة ينفرط عقد هذه الوحدة، وتتضرّر حركة الحياة ومصيرها المشترك"[22]، وتجنّبا لهذا الضّرر ازدادت أهمّية الرّحلات والبحث في الكتابات الّتي تدور في فلك السّفر والانتقال من بلد إلى بلد.

تعتبر الرّحلة منبعا كبيرا لوصف الثّقافات الإنسانيّة، وتصوير الحياة الّتي عاش فيها الرّحالة والوقوف عند ميزات العصر الّذي دوّن فيه ملاحظاته ومشاهداته أضف إلى ذلك أنّ الرّحلات تمكّن الشّعوب من التّواصل والتّعارف، وهي سنّة الله في خلقه منذ الأزل، وقد أظهرت الرّحلات طريقة تفكير الإنسان وسلوكاته في الحياة واستطاعت أن تنقل للآخرين طبائع البشر في بلاد مغايرة، وعاداتهم وتقاليدهم، ومختلف ما هو سائد في حياتهم.

ولا نبالغ إذ نقول بأنّ الجانب الجمالي الّذي تتمتّع به الرّحلة جعلها محلّ اهتمام ودراسة كذلك؛ لتنوّع أسلوبها وغنى مادتها فهي تجمع بين العلوم والمعارف بالإضافة إلى الحقائق والوقائع ممزوجة بالأساطير والأعاجيب، زيادة على احتوائها على عنصر السّرد والوصف والحوار، ولعلّ ما يجعلها ذات فائدة عنصر التّشويق الّذي يصاحب السّرد القصصي، ممّا يجعل المتلقّي يسبح في خيالات تنقله من المقام الّذي هو فيه إلى مقامات أخرى مغايرة يكتشف من خلالها بيئات وشخصيّات وذهنيّات يعود الفضل الأوّل والأخير إلى استحضارها للرّحالة الّذي أنفق عمرا ووقتا في سبيل كتابة رحلته الّتي قام بها.

2.2 أدب الرّحلة وإنتاج الصّور:

يفسح الأدب المقارن بتعدّديّة فروعه البحثيّة الباب للبحث في مجال صورة الآخر والأنا على حدّ سواء، ولعلّ أدب الرّحلة يعتبر مصدرا مهمّا من مصادر تشكيل الصّور؛ "ذلك أنّ نقل الصّورة طبيعة بشريّة لا يشذّ عنها إنسان، ولهذا فالمقارنة تسكن بالضّرورة كلّ رحلة ورحّالة تقابل فيهما الأنا بالآخر، حتّى ولو كانت هذه الرّحلة احتكاكا حضاريّا عنيفا على شاكلة رحلة نابليون بونابارت إلى مصر"[23]، ومن خلال هذا نلاحظ بأنّ أدب الرّحلة يساهم بشكل كبير في نقل صورة الآخر؛ بل يمتدّ إلى رصد طبيعة العلاقات بين الشّعوب، وفي هذا الصّدد يقول عبده عبّود: "كثيرا ما يكون مصدر تلك الصّور أسفار ورحلات قام بها الأديب إلى بلد أجنبي، أو إقامة الأديب في ذلك البلد"[24]، والّتي نتج عنها رصد لمعالم الحياة فيه، وعادات وتقاليد أهله، ومن خلاله تكوين صورة عنه.

هذه الصّورة الّتي يقول عنها دانييل هنري باجو (**D.H pageaux**): "يستدعي مفهوم الصّورة تعريفًا أو على الأصح فرضية عمل يمكن أنّ تصاغ على الشّكل التّالي: كلّ صورة تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلا بالأنا بالمقارنة مع الآخر، وبهنا مع مكان الآخر، الصّورة هي إذن تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثّقافي"[25] المعيش فعلا لا المتخيّل سرابًا، وهي تبحث "عن المعاني

الذّهنية، والأحكام المستجمعة الّتي تكوّنها الذّات عن الآخر أو الغير، بل تستقرئ صور الشّعوب عن بعضها البعض سواء أكانت تلك الصّور إيجابية أم سلبية لمعرفة العلاقات الموجودة بينها، وطبيعة التّمثلات، والتّأثير الّذي تمارسه تلك الصّور، والأحكام على تصرّفات الأفراد على جميع الأصعدة والمستويات"[26]؛ ليتأكّد جلّيا أنّ الصّورة تلعب دورًا هامًا من خلال تمثيلاتها في ربط الشّعوب ببعضها البعض، أو تنافرها.

وبغض النّظر عن تلك الصّور إن كانت محمولاتها إيجابيّة أو سلبيّة يظهر بأنّ أدب الرّحلة يعتبر منبعا ثرّا يحوي في ثناياه معلومات غزيرة عن البلدان والشّعوب تأتّت من توثيق الرّحالة لها ومّما لا ريب فيه أنّ " لأدب الرّحلات أهميّته القصوى في الأدب المقارن بعامّة، وفي إنتاج الصّورة بخاصّة هذا المبحث المقارني الجديد الّذي يسعى إلى التّقريب بين الأمم والشّعوب، وربط العلاقات فيما بينها، وذلك بالتقاء الرّحالة الأديب مع الأدباء والشّعراء، والنّقاد والمؤرّخين فيتأثّر بهم، وعند عودته إلى وطنه يكون قد نقل هذه الصّورة العلميّة والتّاريخيّة والأدبيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، فيتأثّر بما نقل إليه من صور عن طريق هذه الرّحلة، أو الرّحلات فيطعّم بها أدبه، ويلوّنه وفق ما يراه مناسبا"[27].

وبهذا يمكن اعتبار أدب الرّحلة خزّانا معرفيّا يحوي الكثير من الأخبار عن الشّعوب الّتي زارها الرّحالة؛ بحيث يطلعنا على طبيعة الصّورة الّتي تحملها تلك الشّعوب عن بعضها البعض، والمؤكّد أنّ أدب الرّحلات "كان مسكونا بالمقارنة، وهو لذلك مارس حضورا شرعيّا منذ البدايات الأولى لظهور الدّرس المقارني، ممّا سمح للمقارنين اتّخاذ صورة أدب الرّحلات مبحثا لإثراء هذا الدّرس"[28] الّذي استفاد كثيرا منه فقد كشف له اللّثام عن الآخر، واستطاع بما اتيح له تبيان معالمه الّتي تبلورت عن طريق الرّحلة.

وتمكّننا من رصد التّمثيلات حوله، والّتي "تتكوّن من مزيج من المشاعر، والأفكار والمعلومات، والمواقف الّتي يحيل بعضها إلى حقائق الجغرافيا، والتّاريخ، والعمران البشري الخارجية ويحيل البعض الآخر منها إلى عالم الذّات والدّاخل؛ بما فيه من رغبات، وطموحات، وتوهّمات؛ ممّا يعني أنّ صورة الآخر فرع من تصّور الذّات لذاتها، وللعالم، والكون من حولها"[29]، فهي لا تفرز تصوّرًا حول الآخر إلاّ إذا ارتبط بذاتيتها أوّلاً، وبالمحيط الّذي تتّصل به ثانيًا، بالإضافة إلى ما تجمعه من معلومات قبليّة تعينها على تشكيل تلك الصّورة الموجّهة صوب الآخر فردًا كان أو جماعة.

3. البعد الاستكشافي الاستطلاعي في الرّحلة الأغواطيّة:

تعتبر رحلة ابن الدّين الأغواطي من أبرز الدّراسات الّتي ركّزت على الكشوف الجغرافيّة، والبعثات الأوروبيّة الّتي أثّرت في التّمهيد للاستعمار الفرنسي والأمريكي، ولأنّ دوافع الرّحلات شتّى لفت انتباهنا أنّ ابن الدّين الأغواطي وفق ترجمة أبو القاسم سعد الله كتب الرّحلة وفقا لطلب القنصل ويليام هودسون مقابل دفع مبلغ إزاء هذه الخدمة، "مرّ عثورنا على هذه الرّحلة بمراحل لا بدّ من ذكرها، فأثناء مطالعتي لحياة وأعمال القنصل الأمركي في الجزائر ويليام شيلر وجدت إشارات قادتني إلى حياة خلفه في المهنة وهو ويليام هودسون، ومن خلال تتبّعي لحياة ونشاط هودسون وجدت ما ترجمه من رحلة ابن الدّين الأغواطي"[30].

ويبدو من خلال قول أبي القاسم سعد الله أنّ مؤلّف الرّحلة حسب مترجمه لم يكن معروفا على مستوى الجزائر، "رغم أنّ هذا الاسم– ابن الدّين –كان موجودا في المناطق التّلية بالجزائر، وقد سألنا عنه بعض المثقّفين من أهل الأغواط فأفادونا أنّ عائلة ابن الدّين مازالت موجودة، وأنّه كان معروفا في وقته، وأنّه كتب عملا استحوذ عليه الفرنسيّون، وعلى الخصوص شيخ بلدية مدينة الجزائر"[31] ، والشّاهد في هذا القول أنّ هذه الرّحلة مثّلت منجما بالنّسبة للمستعمر، وقد أبانت عن مخزون من المعلومات والمعارف أفادت القنصل، ومهّدت للاستعمار.

ويصرّح أبو القاسم سعد الله بأنّ "الحاج ابن الدّين كان قليل التّعلّم، كثير الاطّلاع، فهو قليل التعلّم؛ لأنّ معلوماته عن بعض أحوال العصر الّتي سنشير إليها في التّعاليق وبتاريخ الحضارة الإسلاميّة لا تدلّ على معارف دقيقة، فهو من الظّاهر كان من المستمعين الّذين يعرفون ولا يدقّقون، يلمّون ولا يتخصّصون، أمّا كثرة اطّلاعه فتدلّ عليها خبرته بالمناطق الّتي وصفها"[32] وأجاد في ذلك كالدّرعيّة وشنقيط وتمبكتو وغدامس.

ويتساءل سعد الله عن علاقة هودسون بالحاج ابن الدّين، "لماذا سأله هو بالذّات كتابة رحلته؟ هل لأنّه يعرفه مطّلعا دون غيره على أحوال الصّحراء وأهلها ولغتها؟ هل ذهب هودسون إلى الأغواط فالتقى به؟ أو هل جاء الحاج ابن الدّين إلى مدينة الجزائر فالتقيا؟ وهل كتب الحاج ابن الدّين عملا كبيرا فاختصر منه النص الّذي قدّمه إلى هودسون؟ وكيف دفع هودسون ثمن المكتوب؟"[33]، وكلّ هذه الأسئلة تبقى مطروحة دون إجابة.

والظّاهر أنّ هودسون الأمريكي كان حريصا على جمع معلومات عن البربريّة، وقد كان على صلة بأحد طلاّب زواوة الّذي استفاد من ترجمة لبعض أشعار هذه اللّهجة، وهو يعتبر "من أوائل المستشرقين

المهتمّين بهذه اللّهجة، وفي هذا النّطاق تأتي رحلة الحاج ابن الدّين، فهودسون يذكر أن: هدفي الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التّأكيد على امتداد رقعة اللّغة البربريّة"[34].

ورغم كلّ هذه الحظوة الّتي نالتها هذه الرّحلة تتأتى أهمّيتها من كونها نصّ تاريخي تحتوي على معلومات تشمل جميع نواحي الحياة، والّتي صرّح هودسون بأنّها معلومات قيّمة لم يسبق للأوروبيّين أن عرفوها حتّى الّذين قصدوا إفريقيا، وكتبوا عنها، وقد سارع الفرنسيون إلى ترجمة هذا النّص وتداوله، لكونهم أكثر اهتماما بإفريقيا من الأمريكيين.

رغم أنّ هذا النّص في أصله كان مكتوبا بخط مغربي غير جيّد، وغير دقيق وحجم المخطوط بلغ أربع عشرة صفحة، ويقول هودسون في هذا الصّدد: "لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال إفريقية قام بها الحاج ابن الدّين الأغواطي، وهذه الرّحلة كتبها صاحبها بطلب منّي، وقد دفعت له الثّمن، إنّني أعتقد أنّ المرحلة تحتوي على معلومات تهمّ جغرافية إقليميّة؛ بحيث قد تكون مفيدة للرّحالة في المستقبل، إنّ معظم المدن والشّعوب الّتي تحدّث عنها ابن الدّين غير معروفة معرفة جيّدة بل إنّ بعضها لم يشر إليها أيّ رحالة أو جغرافي أوروبي من قبل، حتّى ليون الإفريقي نفسه لم يذكرها"[35]، ومهما كانت دوافع كتابة هذه الرّحلة فهي وثيقة حوت بين دفّاتها جمالية تجعل القارئ يستكشف، ويطّلع على ربوع ممتدّة زاخرة ثقافيّا وطبيعيّا واجتماعيّا.

ومن جماليّات الرّحلة الأغواطيّة أنّ القارئ يلاحظ في الرّحلة المقتضبة للصّحراء أنّ ابن الدّين رغم ما أحاط رحلته من الغموض وقف على وصف شامل "للمدن الصّحراوية سواء كانت عبارة عن مدن أو قرى، حواضر أو بوادي، وقد أحاطت أوصافه لهذه الأقاليم مجالاتها الحضارية، وأخبارها السّياسيّة بالإضافة إلى المسح الجغرافي فيما يتعلّق بالمناخ والمياه والوديان والطّرق"[36]، وما يلفت انتباهنا ليس الوصف ولا النّقل الّذي مسّ مختلف الجوانب، بقدرما يهمّنا جماليّة هذه الرّحلة في جانبها الاستطلاعي الاستكشافي، فمعلوم أنّ التّنزّه والتّجوال، وسبر غور المجهول من أبرز دوافع الرّحلة لاكتشاف الأمصار والأقطار، وما تحفل به بغضّ النّظر عن بقيّة الدّوافع .

وتبدأ رحلة الأغواطي بمدينة الأغواط، الّتي رغم قصر الحديث عنها أجمل الكاتب أغلب ما يميّزها من نواحي متعدّدة؛ "إنّ الأغواط بلدة كبيرة، وهي محاطة بسور وحولها تحصينات، ولها أربعة أبواب، وأربعة مساجد، ولغة سكّانها هي العربية، وهم يرتدون الملابس الصّوفيّة، ولا تخرج فيها النّساء المحترمات من بيوتهنّ

أبدا، ولكن غيرهنّ يظهرن في الشّوارع، وليس في البلدة حمامات، وهي تنتج الفواكه بكثرة، ومن بينها التّمر ، والتّين والعنب، والسّفرجل والرّمان والأجاص"[37]، فهنا نلمح جمعا لمجالات كثيرة جغرافيّة، طبيعيّة، وحتّى اجتماعيّة وفلاحيّة، وهذا يدلّ على معرفته الدّقيقة وملاحظته الفاحصة.

ومن ذلك قوله: "وقد بنيت بلدة الأغواط من الطّين بالدّرجة الأولى غير أنّ بعض المنازل مبنية بالحجر والملاط، وليس للمساجد فيها منارات، كما أنّه ليس لهذه البلدة مكان مخصّص للسّوق، ولا حمام، أمّا العملة المتداولة فيها، فهي عملة الجزائر وفاس، والتّجارة فيها رائجة" [38] للغاية، ثمّ ينتقل إلى الدّين إلى تجمعوت؛ حيث يركّز فيها على الجانب الجغرافي، ولديه خبرة بالأمكنة والوقت الفاصل لبلوغ كلّ مدينة، بعدها ينتقل إلى عين ماضي، "إنّ هذه البلدة تقع غربي تجمعوت وهي محاطة بأسوار تشبه أسوار طرابلس، ولها بابان عظيمان، ولحاكمها الّذي يسمّى ولد التيجيني حوالي مائة عبد، وخزنة مليئة بالنّقود"[39]، فهنا تركيز على الجانب السّياسي التّاريخي.

وقد أخذ الجانب الجغرافي نصيبه في هذه الرّحلة كحديثه عن جبل عمور، وهو "جبل عال جدّا، وفيه مائة عين جارية، وينبع منه نهر كبير يسمّى نهر الخير، وهو مشهور عند الجميع، وأرض هذا الجبل صالحة للزّراعة، وفيه كلّ أنواع الخشب"[40]، كما أنّ لغتهم هي العربية، وينعت ابن الدّين عدد المسلّحين في جبل عمور.

وفي سياق الرّحلة من الأغواط إلى متليلي بوادي ميزاب؛ فالمسافة بين الأغواط ورأس الشّعب يوم واحد، وهناك لا تنمو سوى شجرة البطم، "ليس في متليلي أسوار وليس فيها ماء باستثناء ما يستخرج بالطّواحين، ووجه الأرض هنا ليس رمليّا منبسطا بل هو عبارة عن هضاب مغطاة بصخور حادّة تقطع كالسّكاكين، وينمو هنا النّخيل، وقلّما تنزل المطر، ولغة السّكان هي العربية والبربرية وهم يركبون الجمال، ومسلحون بالبنادق والسّيوف، وتقع هضاب وادي ميزاب شرقي متليلي."[41] كما أنّه يشير إلى الجانب الدّيني في وادي ميزاب.

ولم يقف الرّحالة عند الجانب الاستطلاعي الاستكشافي بل تحدّث عن طريقة صنع البارود كأنّه خبير، "وجميع سكّان هذه الصّحاري يعرفون فنّ صناعة البارود، وطريقتهم فيه هي هذه، يجمع التّراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدّمة"[42]، ويوجد في الصّحراء منجم من الرّصاص يقع شرقي أولاد نائل وهو ليس تحت سلطة أيّة قبيلة، والجانب الغالب على هذا النّص الرّحلي هو الجانب الجغرافي والاجتماعي، وهو حال

الرّحلة من متليلي إلى المنيعة، و "تقع هذه القرية وسط الرّمال، وليس لها ماء باستثناء ما يجلب من الآبار وسكّنها يسمّون بالشّعابنة، وهم يتكلّمون العربيّة، ويركبون الجمال، وليس لهم خيول، وسلاحهم من السّيوف والبنادق والرّماح، ولباسهم من الصّوف، وليس لهذه القرية سور"[43]، وكأنّ ابن الدّين لبس رداء السّائح، وحمل منظارا عمل على التقاط كلّ الزّوايا، الّتي تلفت انتباهه.

كمدينة ورقلة فهي بلدة كبيرة جدّا، ولها سور يحيط بها فيه عدّة أبواب، حتّى سكّان المنطقة عمل على وصفهم، "وسكّان ورقلة يسمّون الرّواغة، ولونهم أسود، ولباسهم من الصّوف والقطن ولكن البلدة كلّها عبارة عن سبخة من الملح، ويدخل في نطاق ورقلة أيضا مكان يسمّى الشّط كما أنّه يمكن للعين أن ترى القرى الآتية عن أعلى منارة في ورقلة، وهي: الرّويسات، وعجاجب ومقوسة، أمّا جنوب ورقلة فكلّه رمال لا نهاية لها"[44].

ولم يقتصر الأمر على هذا الجانب، فعلى الرّغم من قصر ما وصل إلينا من هذه الرّحلة حيث يوقفنا على مختلف الأصعدة –كما أنف الذّكر– وهذا حال حديثه عن رحلة من المنيعة إلى توات، بالإضافة إلى تيميمون؛ فالقارئ لما دوّنه يلمح دقّة في كلّ المعلومات فهي مدينة كبيرة، "ولها سوق عظيم، وفيها التّمر، بالإضافة إلى غيره من الثّمار، وفيها مياه غزيرة، ويوجد فيها أيضا الشّب الأحمر، وأهلها يتكلّمون البربريّة، وأغنامهم مثل غنم السّودان"[45]، فهو يصف جوانب مختلفة.

ثمّ يمضي بنا ابن الدّين في الحديث عن بلدة أولف وعين صالح، القورارة وشنقيط الّتي يربي أهلها الإبل، وطعامهم ألبان ولحوم تلك الإبل، بينما القمح والشّعير فغير معروفين لديهم، "ويقرأ سكّان شنقيط القرآن بكثرة، حتّى النّساء يقرأنه، وقد يرى الرّجل، وهو يقرأ القرآن لأمّه وزوجته ويفتخر السّكان بالتّواصل الاجتماعي، وليس لشنقيط سلطان، أمّا الثّمار المنتجة فهي التّمر وزهور اللّوتس وقليل من البطّيخ"[46]، وهنا تظهر براعة الكاتب في حديثه عن عادات المنطقة وأهلها، بل حتّى أنّه لم يهمل الجانب الفلاحي كذلك كذكره للفواكه المنتشرة فيها.

كما أشار إلى طريقة الارتحال من السّودان إلى واحة توات، وكذلك من ورقلة إلى غدامس ثمّ وادي سوف، ليصف طريقة صيد النّعام؛ ذلك أنّ الصّياد يركب فرسه ويأخذ معه الطّعام الضّروري، كما يأخذ بعض الماء، وهو يسير ببطء إلى منتصف النّهار، وفي هذا الوقت يتجمّع النّعام في قطعان تبلغ الماء أو تزيد، وبمجرّد ما يلمح النّعام الإنسان يطير هربا منه"[47]، ويظلّ الصّياد يطارده، بينما بلدة غدامس فهي مبنية

بالطّين أو الطّوب، وأهلها يتكلّمون البربريّة لينتقل الرّحالة إلى الطّوارق، وقرية مطماطة، ومنها يشير إلى وجود قبائل أخرى بالإضافة إلى تقرت.

يتوقّف ابن الدّين الأغواطي عند بلدة تقرت، ويسهم في وصفها؛ حيث تعتبر "بلدة الثّروة والرّخاء، فهي تنتج التّمر والتّين والعنب والرّمان، والتّفاح والمشماش، والإجاص وغيرها من الفواكه وسوقها كبير جدّا، وهذه البلدة هي عاصمة المنطقة، ولها نفوذ على أربعة وعشرين قرية"[48]، لينعت بعدها ديانة أهلها، وحاكم المنطقة وممتلكاته، ثمّ ينتقل إلى جزيرة جربة الّتي استأثرت باهتمامه فذكر إنتاجها لمختلف الفواكه، وهنا تبرز جماليّة المناطق الّتي وصفها الرّحالة، "وهذه الجزيرة تنتج الزّيتون، والعنب والإجاص والرّمان والتّين واللّوز، ولكن النّخيل لا ينمو عليها، والمطر ينزل بكثرة عليها، والجزيرة مقسّمة إلى أجزاء منفصلة، ولكلّ منزل فيها حديقة متّصلة به، والسّوق واسع جدّا ومنظّم كثيرا، ويملك عدد من التّجار فنادق، أو مخازن، وجربة تابعة لباشا تونس الّذي يعين عليها الحاكم"[49]، وهذا حال قبيلة ورغمة وقابس، لتبلغ الرّحلة الدّرعيّة الّتي كانت عاصمة الدّولة السّعوديّة، وهي بلدة كبيرة، ولها مساجد، وقد عرّج ابن الدّين للحديث عنهم، وعن صفاتهم، وهم لا يتكلّمون البربرية.

كما أنّه وصف لباس أهل الدّرعيّة، فهو يتألف من قفطان من الصّوف وحولهم حزام من سيور الجلد، ويتعصّبون بمناديل الحرير، كما أشار ابن الدّين عملة هذه البلدة وانتشار الخيل فيها، "وثمن الحصان في السّوق ثلاثون جملا، والعرب تسمّي أفرسها كحالية، وهم يعتبرونها شيئا ثمينا، إنّ هذه الخيول حيوانات جيّدة، وهي في السّرعة كالرّيح، وهي الآن نادرة الوجود، وهي لا توجد إلاّ في إسطبلات أمراء مصر وسورية وفاس"[50]، لتختم الرّحلة بقول ابن الدّين الأغواطي بأنّ: "ما سبق هو وصف لما رأيناه"[51].

تظهر جماليّة هذه الرّحلة في وصف مختلف الجوانب الّتي مرّ بها ابن الدّين الأغواطي؛ حيث وقف عند وصف الأسوار والمباني، والآبار، كما أنّه تكلّم عن المجتمع الصّحراوي، ومدى انتشار العنصر البربري الّذي يوحي بأنّ هذه الشّريحة الاجتماعيّة كانت تتواجد في بلاد المغرب، وتحدّث عن الجانب الاجتماعي، وأبرز العادات والتّقاليد، وحتّى أنواع الألبسة الّتي تتواجد بها، وما يمكن قوله حول هذه الرّحلة دقّة الوصف الّذي ورد في النّص الرّحلي، وسرد تفاصيل متعلّقة ببلدان شمال إفريقيا وصحرائها، والسّودان والدّرعيّة الّتي كانت المعلومات حولها مقتضبة ومختصرة، وربّما تعلّق الأمر بالغاية من الرّحلة في حدّ ذاتها، والّتي جاءت

بطلب من المستشرق الأمريكي الّذي رغب في الوقوف عند مدى انتشار اللّغة البربريّة بإقليم الصّحراء وفي هذا بعد سياسي محض.

واللاّفت للانتباه أنّ هذه الرّحلة شكّلت محطّ اهتمام من طرف الأمريكيّين والفرنسيّين، لما تحويه من فيض زاخر من المعلومات عمل أبو القاسم سعد الله على ترجمتها، والبحث فيها، وبذلك أهدى للباحثين والمهتمّين بأدب الرّحلة مدوّنة نفيسة أبانت الدّور الّذي لعبته دراسات المستشرقين وبحوثهم في خدمة بلدانهم من جهة، والاستعمار من جهة أخرى، بالإضافة إلى توثيق الأحداث التّاريخيّة، وشحذ همّة الرّحالة للبحث والتّقصي، واستطلاع أغوار ومجاهيل الصّحراء، وهذا الّذي عكست الرّحلة الأغواطيّة جانبا من جوانبه.

خاتمة:

من أبرز النّتائج الّتي يمكن رصدها من خلال هذه الدّراسة :

- يعتبر أدب الرّحلة لونا أدبيّا ذو طابع قصصي، ومصدرا يصوّر جغرافية وتاريخ البلدان الّتي زارها الرّحالة، كما أنّها تعرض لمختلف الجوانب الاجتماعيّة، والاقتصاديّة لهذه المناطق باعتبار أنّ الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من مشاهداته العينيّة، ونقله المباشر لما يراه.
- تتعدّد بواعث ودوافع الرّحلة كالدّوافع الذّاتية والدّينيّة، والتّعليميّة والسّياسيّة والاستكشافيّة.
- وتبعا لدوافع الرّحلة تتنوّع كذلك الرّحلات فمنها: الدّينيّة والعلميّة والتّجاريّة والسّياحيّة وغيرها.
- للرّحلة أهميّة تتجلّى في كونها تحوي معارف جمّة في مختلف العلوم والفنون.
- ينتج عن الرّحلة صور كثيرة تمكّن صاحبها من نقل مشاهد عن البلاد الّتي زارها الكاتب ليطلع القارئ على ميزاتها، وطبيعة حياة أهلها ونمط معيشتهم، وعاداتهم وتقاليدهم.
- حفلت الرّحلة الأغواطيّة بمعلومات غزيرة عن مدن شمال إفريقيا والسّودان والدّرعيّة وأبانت عن جماليّة عكست روح ابن الدّين المحبّة للاستكشاف والاستطلاع، وعلى الرّغم من كونها كما قال أبو القاسم سعد الله ألّفت بناء على طلب القنصل الأمريكي، إلاّ أنّها حازت على اهتمام المستشرقين لما تضمّنته من حقائق لم يسبق إليها أحد من الرّحالة والباحثين الأوروبيّين.

الهوامش والاحالات:

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، (مادة رحل)، ص: 121، 122، 123.

[2]– المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، ط4، 2004، ص: 334، 335.

[3]– مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص: 17.

[4]– عبد النّور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص: 122.

[5]– صلاح الدّين الشّامي، الرّحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة، مجلة عالم الفكر، شتاء 1983، الكويت، ص: 13.

[6]– أنيس منصور، أعجب الرّحلات في التّاريخ، مطابع الأهرام التّجارية، قليوب، مصر، ج1، (دط)، (دت)، ص: 06.

[7]– المرجع نفسه، ص: 03.

[8]– المرجع السّابق، ص: 03.

[9]– المرجع نفسه، ص: 04.

[10]– المرجع نفسه، ص: 04.

[11]– المرجع نفسه، ص: 06.

[12]– المرجع نفسه، ص: 06.

[13]– نوال عبد الرّحمن الشّوابكة، أدب الرّحلة الأندلسية والمغربية، حتى نهاية القرن التّاسع الهجري، دار المأمون للنّشر والتّوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص: 21.

[14]– محمد بن عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم: محمد السويدي، موفم للنّشر، الجزائر، (دط)، 1989، ص: 07.

[15]– فؤاد قنديل، أدب الرّحلة في التّراث العربي، مكتبو الدرا العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص: 19.

[16]– المرجع نفسه، ص:20.

[17]– المرجع نفسه، ص: 20.

[18]– أنيس منصور، أعجب الرّحلات في التّاريخ، المرجع السابق، ص: 110.

[19] – المرجع نفسه ص: 04.

[20]– المرجع نفسه، ص: 05.

[21]– المرجع نفسه، ص: 09.

[22]– حسين محمد فهيم، أدب الرّحلات، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 1989، ص: 18.

[23]– رابح الأطرش، أدب الرّحلة وإنتاجيّة الصّورة، مجلّة النّص، ع: 11، جوان 2012، ص: 169.

[24]– عبده عبود، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، جامعة البعث، حمص، (دط)، 1992، ص: 374.

[25]– دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السّيد، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997، ص: 86.

[26]– جميل حمداوي، مستجدّات النّقد الرّوائي، مكتبة النّاظور، المغرب، ط1، 2011، ص: 420.

[27]– رابح الأطرش، أدب الرّحلة وإنتاجيّة الصّورة، مجلّة النّص، ع: 11، جوان 2012، ص: 169.

[28]– المرجع نفسه، ص: 180.

[29]– معجب الزّهراني، صورة الغرب في كتابة المرأة العربية، ضمن كتاب: أفق التّحوّلات في الرّواية العربيّة، دراسات وشهادات، فيصل الدّراج وآخرون، دار الفنون، عمان، الأردن، ط1، 1999، ص: 54.

[30]– رحلة الأغواطي الحاج ابن الدّين في شمال إفريقيا والسّودان والدّرعيّة، ترجمة وتحقيق: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدّوليّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، طبعة خاصّة، 2011، ص:80.

[31]– الرّحلة، ص:80.

[32]– الرّحلة، ص:80.

[33]– الرّحلة، ص:80.

[34]– الرّحلة، ص:82.

[35]– الرّحلة، ص:85.

[36]– سياب خيرة، رحلة الصّحراء لابن الدين الأغواطي المعروفة بـ: الرّحلة الأغواطيّة، دراسة طبيعيّة، اقتصاديّة، اجتماعيّة، عمرانيّة، المجلة الجزائريّة للمخطوطات، ع 13، جوان 2015م، ص:169.

[37]– الرّحلة، ص:87.

[38]– الرّحلة، ص:88.

[39]– الرّحلة، ص:88.

[40]– الرّحلة، ص:89.

[41]– الرّحلة، ص:90.

[42]– الرّحلة، ص:90.

[43]– الرّحلة، ص:92.

[44]– الرّحلة، ص:92.

[45]– الرّحلة، ص:93.

[46]– الرّحلة، ص:94.

[47]– الرّحلة، ص:97.

[48]– الرّحلة، ص:100.

[49]– الرّحلة، ص:101.

[50]– الرّحلة، ص:103.

[51]– الرّحلة، ص:104.

المصادر والمراجع:

1/ رحلة الأغواطي الحاج ابن الدّين في شمال إفريقيا والسّودان والدّرعيّة، ترجمة وتحقيق: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدّوليّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، طبعة خاصّة، 2011.

2/ ابن فارس، مقاييس اللّغة، تح: عبد السّلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج2، ط2، (مادة رحل)، 1979.

3/ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، (مادة رحل).

4/ المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، ط4، 2004.

5/ مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.

6/ عبد النّور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984.

7/ صلاح الدّين الشّامي، الرّحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة، مجلة عالم الفكر، شتاء 1983، الكويت.

8/ أنيس منصور، أعجب الرّحلات في التّاريخ، مطابع الأهرام التّجارية، قليوب، مصر، ج1، (دط)، (دت).

9/ حسني محمود حسين، أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط2، 1983.

10/نوال عبد الرّحمن الشّوابكة، أدب الرّحلة الأندلسية والمغربية، حتى نهاية القرن التّاسع الهجري، دار المأمون للنّشر والتّوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008.

11/ محمد بن عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم: محمد السويدي، موفم للنّشر، الجزائر، (دط)، 1989.

12/ فؤاد قنديل، أدب الرّحلة في التّراث العربي، مكتبو الدرا العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002.

13/ حسين محمد فهيم، أدب الرّحلات، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 1989.

14/عبده عبود، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، جامعة البعث، حمص، (دط)، 1992.
15/ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السّيد، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997.
16/جميل حمداوي، مستجدّات النّقد الرّوائي، مكتبة النّاظور، المغرب، ط1، 2011.
17/معجب الزّهراني، صورة الغرب في كتابة المرأة العربية، ضمن كتاب: أفق التّحوّلات في الرّواية العربية، فيصل الدّراج وآخرون، دار الفنون، عمان، الأردن، ط1، 1999.
18/ سياب خيرة، رحلة الصّحراء لابن الدين الأغواطي المعروفة بـ: الرّحلة الأغواطيّة، دراسة طبيعيّة، اقتصاديّة، اجتماعيّة، عمرانيّة، المجلة الجزائريّة للمخطوطات، ع 13، جوان 2015م
19/ رابح الأطرش، أدب الرّحلة وإنتاجيّة الصّورة، مجلّة النّص، ع: 11، جوان 2012.
https://ar.m.wikipedia.org 27/11/2021.